البرجماتى

أصل المذهب البرجماتى

الإجماع منعقد على أن ممثلى البرجماتية الأمريكية هم بيرس ، وجيمس ، وديوى ، وميد . وفى ذلك يقول جون « تشايلدز » : الحركة التى تعرف فى الفلسفة باسم « البرجماتية » و « الأداتية » و « التجريبية » هى فى الواقع تعبير عن الثقافة الأمريكية . وأبرز ملامحها صفتها التجريبية ، فهى تقبل الخبرة الإنسانية العادية منبعاً نهائياً وامتحاناً أخيراً لكل معرفة وقيمة . وقد ولد مؤسسوها الأربعة : شارلس بيرس (١٨٣٩ — ١٩١٤) ، وليم جيمس (١٨٤٢ — ١٩١٠) ، جون ديوى (١٨٥٩ — ١٩٥٢) وجورج هربرت ميد (١٨٦٣ — ١٩٣١) فى أمريكا .

والبرجماتية فلسفة تعبر عن مزاج العالم الجديد المعروف بأمريكا ، فهى فلسفة لا ترجع فى تاريخها إلى أكثر من قرن من الزمان . وهى ثمرة التفاعل بين الأفكار التى حملها المهاجرون الأوربيون إلى أمريكا وبين البيئة الجديدة التى نشأوا فيها . فقد نزل المهاجرون فى أرض واسعة بكر ، يعتمدون على سواعدهم وعلى عقولهم فى تذليل الصعاب التى يلقونها ، واستغلال جميع الإمكانيات الموجودة تحت أيديهم لتتيسر لهم عيشة رغدة . فالمعول على العمل والكفاح وحل المشكلات التى يواجهها أحدهم بالعقل أو بالحيلة أو بالمحاولة ، وليس المعول على ثروة موروثة أو وسائل مطروقة . ثم جميع المهاجرين سواء إزاء هذه البيئة الجديدة ، لا فضل لنسب أو حسب أو جاه أو لقب ، وإنما الفضل للعامل المكافح الناجح . وقد هاجر هؤلاء القوم فراراً من الاضطهاد الدينى أو السياسى فى الأغلب ، فهم أصحاب مبادئ يدينون بالحرية ولا يبغون عنها حولا ولا يرضون بها

---

(١) John Childs : American Pragmatism and Education, 1956, p. 8.
والمقصود بأمريكا الولايات المتحدة ، وقد جرت عادة الكتاب أن ينسبوا الفكر الذى نشأ فى الولايات إلى أمريكا من باب إطلاق الخاص على العام .

بديلا . ولا ننسى أن الأمريكان نالوا حريتهم فى حرب الاستقلال وكانوا أول من أيد الثورة الفرنسية والتى كان شعارها الحرية والإخاء والمساواة . ودافع جيفرسون وإمرسون عن الحرية ، وكانت لهما نظرات صائبة ، وأقاويل خالدة فى تمجيد الديمقراطية واستقلال الفرد .

هذه الروح التى لا تؤمن بالجبر بل بأن ظروف الحياة يمكن تحسينها بالتصميم على العمل الذى يسترشد بالعقل .

والتى تعتقد أن التفكير مرتبط ارتباطاً ملازماً بالعمل .

وأن النظريات والمذاهب إنما هى فروض للعمل تمتحن بما ينتج عنها فى المواقف الفعلية للحياة .

وأن المثل الأخلاقية فارغة عقيمة إذا انفصلت عن وسائل تحقيقها .

وأن الحقيقة ليست ثابتة ، وليست نظاما كاملا ، بل الحقيقة عملية جارية فى تغير مستمر .

وأن الإنسان ليس ألعوبة فى يد قوى خارجية ، ولكنه يستطيع إعادة تشكيل الظروف التى تصوغ خبرته بعزمه وإرادته .

وأن الناس فى استطاعتهم تنمية نشاطهم ومؤسساتهم ومبادئهم التى تنظم سلوكهم . . . هذه الروح التى تمثل كل ذلك تعرف باسم البرجماتية ، وهى اسم يطلق على الروح الأمريكية .

ولم تبتدع البرجماتية ابتداعاً ، وتفرض على الشعب الأمريكى فرضاً ، ولكن المفكرين فى أواخر القرن التاسع عشر رأوا أن أليق الأسماء على تلك الروح هو البرجماتية ، فجرى المذهب على الألسن ، وشاع فى الناس ، وتحدد معناه .

ولكى نفهم ديوى البرجماتى لا بد لنا من الرجوع إلى أصل هذا المذهب عند سلفيه . وأوفق ما نفعله أن ندع ديوى يتحدث عن نشأة البرجماتية الأمريكية من الناحية الفلسفية حيث يقول :

برجماتية بيرس

يرجع أصل البرجماتية[١] إلى شارلس بيرس نجل أحد مشاهير الرياضيين فى الولايات المتحدة . وكان بيرس الابن بارعاً كذلك فى الرياضيات . وهو أحد المؤسسين لمنطق العلاقات الرمزى الحديث . ولم يكن بيرس لسوء الحظ كاتباً منظماً ، ولم ينشر آراءه فى مذهب واحد منسق . والطريقة البرجماتية التى أنشأها إنما تنطبق على عالم من الفكر ضيق ومحدود جداً . ويرجع الفضل إلى وليم جيمس فى نشر هذا المنهج وإذاعته . ولما كان جيمس قد خرج على ما تصوره بيرس أساساً للبرجماتية ، فقد انبرى بيرس يعرض أصل هذا المذهب ، وقال إنه ليس فكرة أمريكية بحتة كما يعتقد بعض الناس . ذلك أن اصطلاح « برجماتيك Pragmatic » قد نشأ فى ذهن بيرس من دراسته لكانط الذى ميز فى كتابه « ميتافيزيقا الأخلاق » بين « برجماتيك » وبين « عملى Practical » . فالعملى عند كانط ينطبق على القوانين الأخلاقية التى يعدها أولية a Priori ، أما البرجماتيك فينطبق على قواعد الفن والصنعة التى تعتمد على الخبرة وتقبل التجربة .

ولما كان بيرس تجريبياً قد اكتسب عادات المعمل العقلية ، فقد رفض أن يسمى مذهبه « المذهب العملى Practicalism » كما اقترح عليه بعض أصدقائه . هذا ومن جهة أنه منطقى قبل كل شىء فقد كان يهمه فن التفكير الواقعى ، ويهتم بوجه أخص — فيما يتصل بالمنهج البرجماتى — بالفن الذى يجعل التصورات واضحة ، أو بوضع تعاريف كاملة ومثمرة تتلاءم مع روح الطريقة العلمية .

---

(١) كتبت هذه المقالة باللغة الفرنسية لمجلة الميتافيزيقا والأخلاق سنة ١٩٢٢ بعنوان :

Le Dévelopement du Pragmatisme Américain.

ثم ترجمت ونشرت بعد ذلك فى عدة مجلات أمريكية ، وأخيراً نشرت فصلا فى كتاب الفلسفة والحضارة ، ص ١٣ — ٣٥ ، بعنوان Development of American Pragmatism. ونحن ناقلون هنا معظم هذه المقالة لأهميتها .

يقول بيرس : « الشخص الذى لا يزال يفكر باصطلاحات كانط ، فإن عملى Praktisch وبرجماتيك Pragmatisch يقعان فى الاختلاف على طرفى نقيض . فالاصطلاح الأول يتصل بمنطقة من الفكر لا يمكن لذهن من طراز تجريبى أن يكون متأكداً من أنه يقف على أرض ثابتة . والثانى يعبر عن علاقة بغرض إنسانى محدود . وأبرز ملامح النظرية الجديدة اعتراضها بوجود صلة لا تنفصم عراها بين المعرفة العقلية والغرض العملى » .

إشارة بيرس إلى الذهن ذى الطراز التجريبى تفضى بنا إلى المعنى المضبوط الذى وضعه للفظ « برجماتيك » . ويقول بصدد الشخص التجريبى الذى تكون عقله فى المعمل ما نصه : « أى قضية تتقدم بها إليه فإما أن يفهم منها أن شيئاً ما حين يوضع موضع التجربة أمكن ويمكن دائماً إجراؤه بالفعل بحيث يتولد عنه تجربة من نوع معين ، وإما أنه لا يفهم لقولك أى معنى على الإطلاق » .

وهكذا أنشأ بيرس نظريته القائلة بأن الدلالة العقلية للفظ أو العبارة تقوم بوجه الإطلاق على أثرها فى السلوك . ثم تطورت نظريته فى مقالته المشهورة « كيف نجعل أفكارنا واضحة » . فالمعنى المعقول لأى قضية يقع فى المستقبل ، ولكن أى صورة من بين آلاف الصور التى يمكن أن تكون عليها القضية هى التى يجب أن نقول عنها إنها معناها بالذات ؟ إنها عند البرجماتى تلك الصورة التى يمكن تطبيقها على السلوك الإنسانى ؛ لا على هذه الظروف الخاصة أو تلك . إنها تلك الصورة التى تخضع مباشرة للضبط الشخصى فى ظل أى موقف وأى غرض .

يقول ديوى : اتهامان خاطئان ينسبان إلى واضع البرجماتية ، الأول أنها تجعل العمل غاية الحياة . والثانى أنها تخضع الفكر والنشاط العقلى لغايات خاصة من المصالح والنفع . ثم يجيب عن هذا النقد بأن النظرية عند بيرس تستلزم فى أساسها علاقة معينة بالعمل وبالسلوك الإنسانى ، غير أن دور العمل متوسط . فلكى يكون أحدنا قادراً أن ينسب معنى لتصورات معينة ، فعليه أن

يكون قادراً على تطبيقها فى الوجود ، وهذا التطبيق يكون عن طريق العمل ممكناً ، وتغيير الوجود الذى ينشأ عن هذا التطبيق هو الذى يكون المعنى الصحيح للتصورات .

فالبرجماتية أبعد ما تكون عن تمجيد العمل لذاته ، مما يعدونه السمة المميزة للحياة الأمريكية .

ويلاحظ كذلك أن هناك سُلماً للتطبيقات المحتملة للتصورات على الوجود . ومن ثَمَ يكون هناك تعدد فى المعانى والمفهومات. وكلما اتسع نطاق التصورات تحررت من قيود الحالات الخاصة ، وأمكن لنا أن ننسب أعظم قدر من العلوم لمعنى اللفظ .

وهكذا تعارض نظرية بيرس أى تحديد لمعنى التصورات بأداء غرض خاص أو غرض شخصى. كما تعارض فكرة إخضاع الفكر لخدمة أى نفع مادى أو مصلحة محدودة .

برجماتية جيمس

وواصل جيمس ما بدأه بيرس ؛ غير أن جيمس ضيَّق المنهج البرجماتى من وجه ، ووسَّعه من وجه آخر . وسَّعه بأن جعل تطبيقه على النتائج الخاصة فى المستقبل ، وضيقه من جهة تحديد المبدأ العام . ذلك أن مقالات بيرس التى كتبها سنة ١٨٧٨ لم تلق عناية الدوائر الفلسفية التى كانت خاضعة لتأثير المثالية الكانطية ،وكان ألسنة هذه الدوائر «جرين» و«كيرد». وفى سنة ١٨٩٨ بدأ جيمس الحركة البرجماتية فى خطاب له بعنوان « التصورات الفلسفية والنتائج العملية » ، وأورد ملاحظة بيرس النفسانية من أن الاعتقادات هى حقًّا قواعد العمل ، وليست وظيفة التفكير إلا خطوة واحدة فى إنتاج عادات السلوك ، وأن كل فكرة نكونها فى أنفسنا عن شىء مّا إنما هى فى الحقيقة فكرة عن الآثار المحتملة لهذا الشىء . ثم قال جيمس موسعاً ما ذكره بيرس :

« الامتحان النهائى عندنا لمعنى الحق هو فى الحقيقة ما يمليه أو يلهمه من سلوك . وإنما يلهم ذلك السلوك لأنه ينبئ أولا عن اتجاه معين لخبرتنا يتطلب بالضبط ذلك السلوك منا . وإنى أوثر التعبير عن مبدأ بيرس بأن أقول إن المعنى الفعّال لأى قضية فلسفية يمكن أن يخضع دائماً لنتيجة معينة فى خبرتنا العملية المستقبلة » . ويكرر جيمس هذا المعنى فى مقالة كتبها سنة ١٩٠٨ من أنه حيثما يستعمل لفظ عملى Practical فإنما ذلك يعنى : النتائج المحسوسة ، الفردية ، الخاصة ، الفعالة ، فى مقابل المجردة ، العامة ، الساكنة .

كانت عناية جيمس بمعنى الحق « meaning of truth » . فما دام الحق حدثاً وله تبعاً لذلك معنى ، فهو تطبيق مشروع للمنهج البرجماتى ، وهذا المنهج إنما يخدم « الحق » بأن يوضح معناه دون أن يشتغل بالنظر فى صدق الأحكام الجزئية . والسبب الذى أفضى بجيمس إلى ذلك ، وإلى أن يصبغ المنهج البرجماتى بهذا اللون الجديد هو اشتغاله بتطبيق المنهج على معنى المشكلات الفلسفية ، وبخاصة المسائل الدينية .

كان بيرس منطقياً قبل كل شىء ، أما جيمس فكان مربياً وإنسانياً ، أراد أن يدفع الناس إلى أن يتحققوا من أن لبعض المشكلات والمنازعات الفلسفية أهمية حقيقية للإنسان ، لأن المعتقدات التى تجلبها هذه المشكلات تؤدى إلى ألوان مختلفة من السلوك . واختار جيمس مثالا لذلك الجدل بين المتألهة وبين الماديين . وطبقاً للمبدأ الذى اصطنعه إذا اتخذنا العالم على أنه كامل ، فسيان أن نعتبر الله أو المادة علته ، إذ على أى الحالين تظل الوقائع على ما هى عليه ، وهى التى تحدد أى معنى نعطيه كعلة لها. وبناء على ذلك فالاسم الذى نعطيه لهذه العلة تعسفى محض . ويختلف الأمر تماماً إذا أدخلنا المستقبل فى حسابنا . عندئذ يكون « الله » له معنى القدرة التى تُعنى بتغليب القيم المثالية والروحية فى آخر الأمر . وتصبح « المادة » قوة لا تبالى بغلبة هذه القيم أو انهزامها . وتتخذ حياتنا وجهة مختلفة بحسب اختيارنا أحد هذين البديلين .

وفى محاضراته سنة ١٩٠٧ عن البرجماتية طبق جيمس هذا النقد على المشكلة الفلسفية الخاصة بالواحد والكثير ، وعلى مشكلات أخرى . فالواحدية monism تساوى عالماً جامداً كل شىء فيه ثابت مرتبط بغيره من الأشياء دون تغيير ، ولا موضع فيه للإمكان وحرية الاختيار والتجديد . إنه عالم يتطلب التضحية بالأشياء المتعددة المحسوسة فى سبيل بناء هندسى بسيط شريف . وفيما يختص بالعقائد تتطلب الواحدية مزاجاً عقلياً يفضى إلى نزعة دجماطيقية جامدة .

أما مذهب الكثرة Pluralism فإنه يفسح المجال للحادث ، والحرية ، للتجديد ، ويعطى كامل الحرية فى العمل للمنهج التجريبى . قد يقبل هذا المنهج الوحدة إذا وجدها أمامه ، ولكنه لا يحاول إخضاع تعدد الحوادث والأشياء لكيان عقلى واحد .

وظيفة الفلسفة فى نظر جيمس أنها : « يجب أن تبحث عن التأثيرات البارزة التى نخضع لها أنا وأنت فى وقت معين من حياتنا ، إذا كانت إحدى النظريتين عن العالم صحيحة » . إنه يشير ها هنا إلى ثمرة الفلسفة لا إلى موضوعها . ويستلزم هذا القول أن الصيغ التى نضعها عن العالم موجودة من قبل ، وقد انتهت مهمة وضعها ، ولم يبق لنا سوى النظر فى النتائج التى تنعكس على الحياة عند قبول هذه الصيغة أو تلك .

أما وجهة نظر بيرس فأن نضع معانى العالم فى صيغ تتفق مع ميولنا ومع عاداتنا واستجاباتنا للبيئة . يجب تحديد معانى المادة والله قبل محاولة فهم قيمة معتقداتنا فى هذين التصورين . وبعبارة أخرى بيرس منطقى ، وجيمس إنسانى . ثم تقدم جيمس بالبرجماتية خطوة جديدة بنظريته فى « إرادة الاعتقاد » أو « الحق فى الاعتقاد » كما قال فيما بعد . فالكشف عن اعتقاد ما له أثر معين على الاعتقاد نفسه . فالشخص الذى يجد لذة فى التجديد والمخاطرة وتعدد المظاهر الجمالية سيطرح أى اعتقاد فى الواحدية . أما إذا اعتقد فى الانسجام الجمالى والتناسب الكلاسيكى ، والأمن الثابت ، والتماسك المنطقى ، فإنه يؤمن بالواحدية .

كأنّ جيمس قد أخذ فى حسابه دوافع التعاطف التى تلعب دوراً عظيما فى اختيارنا للمذهب الفلسفى ، أكثر مما أخذ فى حسابه الاستدلالات الشكلية . وعلينا أن نخدم الفلسفة بالاعتراف بالدوافع التى تلهمنا . والمشكلات الفلسفية ، وبخاصة الدينية ، ليست من الوضوح الحاسم بحيث نقبل هذا الرأى أو ذاك . إذن من حق المرء اختيار معتقداته لا عند نقص الأدلة فقط بل عند انعدامها كذلك . من حقه أن يخاطر باختيار إيمانه ، بل إن إنكاره نفسه اختيار .

وهنا نصل إلى لب البرجماتية عند جيمس ، وهى طبيعة الحق[1] truth .

والنزعة البرجماتية عند جيمس تتلخص فى عبارته المشهورة : « أن نستدبر الأشياء والمبادئ والمقولات والضروريات المزعومة الأولى ، وأن نستقبل الأشياء والثمرات والنتائج والوقائع الأخيرة » . فلنطبق هذا المبدأ البرجماتى على « الحق » .

فى العلوم الطبيعية نميل إلى التوحيد بين صدق حالة خاصة وبين التحقيق verification ، وتحقيق نظرية أو تصور يقوم على ملاحظة وقائع خاصة . وأكثر النظريات الطبيعية علمية وتناسقاً إنما هى مجرد « فروض» إلى أن تتحقق نتائجها بالبرهان الرياضى ، أو بأى وسيلة أخرى من وسائل الاستنباط من الوقائع الملاحظة . وفى إخضاع التصورات لضبط التجربة ، أى فى عملية التحقيق ، نجد أمثلة على الحق . فإذا طبقنا هذا المنهج التجريبى وجدنا أن معنى الحق هو التحقيق ، أو بعبارة أخرى التحقيق هو الذى يُعَرِّف الحق .

فالبرجماتية امتداد للتجريبية القديمة مع هذا الفارق وهو أننا نعتمد على الظواهر اللاحقة لا السابقة ، فى إمكانيات العمل .

والأفكار العامة فى البرجماتية لها دور أكثر من مجرد تسجيل أو تلخيص الخبرات السابقة ؛ إنها أساس تنظيم المستقبل فيما يختص بالملاحظة والتجارب .

كان العقل فى التجريبية القديمة يلخص الحالات العامة ، أما فى البرجماتية فللعقل وظيفة بناءة ، إذ ليس المستقبل لفظة جوفاء ، وليست النظريات مجرد

---

(١) يترجم بعضهم هذا المصطلح بقولهم : الصدق .

أفكار عامة ، بل للأفكار العقلية نتائج متصلة بالسلوك .

ويترتب على برجماتية جيمس آثار ميتافيزيقية ، لأن مذهب قيمة النتائج يفضى بنا إلى وضع المستقبل موضع الاعتبار ، والنظر إلى المستقبل هذا النظر يجعلنا نتصور العالم على أن تطوره لم ينته ، أو بعبارات جيمس « عالم فى التكوين » و « فى عملية الصيرورة » أى أنه لا يزال إلى حد ما يتشكل . إنه عالم مفتوح .

ويترتب على ذلك أن العقل أو الفكر له وظيفة خالقة بناءة ، وأننا حين نكون الأفكار العامة ونضعها موضع العمل تخرج لنا نتائج ما كانت تنتج على نحو آخر ، ولكان العالم مختلفاً عما هو عليه لولا تدخل هذه الأفكار العامة . وهذا يؤيد أهمية التفكير وعمله النظرى فى الخبرة . ولذلك ليس من الصحيح القول بأن جيمس نظر إلى العقل والفكر والمعرفة بازدراء ، أو أنه عدها مجرد وسائل للكسب الشخصى أو النفع الاجتماعى . بل للعقل عنده وظيفة مبدعة تشكل العالم وتجعله معقولا ، وتهبه قيمة ملازمة له .

برجماتية ديوى

وهنا نبلغ اللون الجديد للبرجماتية أو الحركة الجديدة التى تسمى « الأداتية » instrumentalism . وقد نشأت بذور الأداتية عند جيمس ، لأنه كان يعد التصورات والنظريات مجرد أدوات يمكن أن تصلح فى تكوين حقائق مستقبلة بطريقة خاصة . غير أنه قصر نفسه قبل كل شىء على المظاهر الأخلاقية لهذه النظرية ، التى كانت أساساً صالحاً يستند إليه مذهب التفاؤل الأخلاقى ، وما ترتب عليها من آثار تختص بقيمة الحياة العاطفية ومنزلة النظم الفلسفية وبخاصة الطعن على العقلية الواحدية والمذهب المطلق فى جميع صوره . ولم يحاول قط أن يقيم نظرية كاملة عن صور العمليات المنطقية .

ومن هنا تبدأ الأداتية عند ديوى[1] . إنها محاولة لوضع نظرية منطقية دقيقة

---

(١) ارجع إلى مقالة هوراس كالن بعنوان جون ديوى وروح البرجماتية فى كتاب:
John Dewey, Philosopher of Science and Freedom, edited by Sidney Nook, 1950 pp. 3-46.
وفيها يوازن بين برجماتية جيمس وديوى ، ويرد فلسفة ديوى إلى الإيمان بالعقل الذى يحرر بالتوحيد والتنظيم والرقابة .

عن التصورات والأحكام والاستدلالات فى شتى صورها، بالنظر قبل كل شىء إلى التفكير كيف يعمل فى تحديد النتائج المستقبلة تحديداً تجريبياً . بعبارة أخرى تحاول الأداتية أن تضع قواعد منطقية يعترف بها عامةً عن طريق استخلاصها من وظيفة العمل المتوسطة والمبدعة والتى تنسب إليه . والغرض من الأداتية تكوين نظرية عن الصور العامة للتصور والاستدلال ، لا عن هذا الحكم أو ذاك أو هذا التصور أو ذاك فى علاقته بمضمونه .

* * *

وإلى جانب هذا التحقيق التجريبى المتصل بالأداتية عند جيمس هناك عاملان مهمان بوجه خاص عند النظر فى أصولها التاريخية ، الأول بسيكولوجى ، والثانى نقدى لنظرية المعرفة والمنطق الذى ساد فى المدرسة بعد الكانطية عند أمثال لوتز وبوزانكيه وبرادلى . فقد كان تأثير هذه المدرسة بارزاً فى أواخر القرن التاسع عشر فى أمريكا ، وكان ديوى نفسه وشيعته[1] التى عاونته فى عرض الأداتية من أتباع المدرسة بعد الكانطية ، كما كانت نقطة البداية عند بيرس هى كانط ، وعند جيمس التجريبية الإنجليزية .

أما الأثر البسيكولوجى على الأداتية فهو من طبيعة بيولوجية، ويتصل بمذهب واطسن فى السلوكية. فالمخ عضو ينسق المؤثرات الحسية فى سبيل إحداث استجابات ملائمة . وتذهب نظرية التطور العضوية إلى أن تحليل العقل وعملياته متفق مع الحقائق البيولوجية المعروفة ، فالجهاز العصبى المركزى يشغل مكاناً متوسطاً يلائم بين حاجات الكائن الحى والبيئة . وقد اعترف أصحاب الأداتية فى كتابهم الذى

---

(١) يشير ديوى إلى الحركة التى نمت فى شيكاغو ، بالاشتراك مع طومسون ، ومكلينان ، وآشلى ، وجور ، وهيدل ، وستيوارت ، ومور ، وكانت ثمرتها الكتاب الذى صدر سنة ١٩٠٣ بعنوان « دراسات فى النظرية المنطقية » . وقد أشار جيمس فى محاضراته عن البرجماتية سنة ١٩٠٧ إلى هذه الجماعة وسماها مدرسة شيكاغو

أصدروه سنة ١٩٠٣ بعنوان « دراسات فى النظرية المنطقية » ، بأن مذهبهم مستمد من كتاب مبادئ علم النفس لوليم جيمس ، لا من كتابه فى البرجماتية الذى أصدره فيما بعد . وقد أعلن الأداتيون فى ذلك الحين اعتقادهم فى اتحاد مبادئ المنطق المعيارية مع عمليات التفكير الحقيقية القائمة على علم نفس بيولوجى لا على علم نفس تأملى لحالات الشعور . وأهم قضيتين فى علم النفس عند جيمس هما نظريته فى اتصال الحالات الشعورية ، أو ما يسميه مجرى الشعور ، وفى إثبات وجود العقل بشتى أفعاله من انتباه وتمييز وموازنة وتصور وتصنيف وغير ذلك ، عن طريق سعى المرء وراء تحقيق الغايات . وفى ذلك يقول : « إن تتبع غايات مستقبلة واختيار الوسائل لبلوغها علامة ومعيار على قيام حالة عقلية فى الظاهرة » .

ويذهب جيمس فيما يختص بطبيعة الحقائق الضرورية والدور الذى تلعبه الخبرة إلى أن الإدراك الحسى والعقلى للعالم المحسوس ليس مجرد تجمع لخبرات خاصة وإنما هو عمل بيولوجى أصيل . وأن العدد والزمان والمكان والتشابه وغير ذلك من المقولات ظهرت نتيجة عدم استقرار المخ . ولا يمكن أن تطبع على العقل بتأثير خارجى . وإنما تجمعت هذه المقولات وامتد أثرها لما لها من قيمة عند تطبيقها على الحالات المحسوسة والأشياء الموجودة فى التجربة . إنها إذن ليست أصل التصورات ، بل تطبيق هذه المقولات هو الذى يصبح معياراً لقيمة التصورات . وفى هذا يكمن الأصل للبرجماتية .

ومن هذا يتضح أن وظيفة العقل ليست مجرد نسخ الأشياء الموجودة فى البيئة ، بل أن تأخذ فى الاعتبار من العلاقات ما هو أفعل فى هذه الأشياء وأصلح لها فى المستقبل .

فالأداتية تجعل للتفكير وظيفة وضعية ، وهى إعادة تكوين الحالة الراهنة للأشياء لا مجرد معرفتها أو اتخاذ نسخة منها . فالتفكير واسطة لاستجابات معقدة مع مؤثرات البيئة . وإذا طبقنا هذه النظرية البيولوجية على الأحكام المنطقية ،

كان الموضوع هو جزء البيئة الذى يتطلب الاستجابة ، والمحمول هو الاستجابة أو العادة أو الهيئة المحتملة التى لا بد للمرء أن يسلكها بإزاء البيئة ، والرابطة[١] تمثل الفعل العضوى والمحسوس الذى يتم به الربط بين الواقعة ودلالتها ، وأخيراً نجد النتيجة أو موضوع الحكم ، وهو تعديل الموقف إن فى الموضوع أو المحمول أى البيئة.

ويتضح من هذا العرض لتاريخ البرجماتية أن الفكر الأمريكى استمرار للفكر الأوربى والثقافة الأوربية فى لغتها وقوانينها ونظمها وأخلاقها ودينها ، ولكنه لاءم بين هذا كله وبين ظروف الحياة الجديدة . وكذلك الحال فى المذهب الأمريكى الفلسفى ، ولم ينشأ من عدم ، بل كان تعديلا للفلسفات الأوربية المستوردة بما يلائم الحياة فى أمريكا .

كانت البيئة الأمريكية تمجد العمل وانتهاز الفرصة والنجاح وكسب المال ، وقد أثرت هذه الظروف بلا نزاع على فلسفتها ، ولكن إلى الحد الذى تجعل الحياة أوفق وأعظم قيمة . فالأداتية تذهب إلى أن العمل يجب أن يكون بصيراً وصادراً عن تدبر ، وأن الفكر يجب أن يشغل منزلة رئيسية فى الحياة . وهذا هو السر فى إلحاح الأمريكان على غائية الفكر والمعرفة ، وهى غائية يجب أن تتحقق فى الأمور الخاصة لا على وجه مجرد .

وأن يكون العقل البصير[٢] intellgence هو المصدر دون غيره والضمان الوحيد لمستقبل سعيد .

وأن العالم لا يزال فى دور التكوين المستمر ، ولا يزال فيه مكان للتجديد والجديد.

وأن التقاليد الموروثة عن الماضى ليست بذات بال ، ويعوضها هذا العالم

---

(١) فى اللغة العربية لا تستعمل الرابطة فى العادة ، إلا إذا أردنا التصريح بها مثل قولنا : الشمس « هى » طالعة . فالموضوع الشمس ، والمحمول طالعة ، والرابطة « هى » . والمقصود عند ديوى أننا نحكم هذا الحكم لموقف معين ، فإذا كنا فى الصيف مثلا فتحنا النافذة ، وإذا كنا فى الشتاء أغلقناها ، أى نحدث تعديلا فى الموقف ، وليس الحكم مجرد صلة المحمول بالموضوع .

(٢) العقل البصير أو intelligence هو الاصطلاح الذى يستعمله ديوى بدلا من العقل reason قد استعملنا هذا الاصطلاح فى مواضع أخرى بقولنا : الذكاء .

الذى يصنعه الأمريكان تحت أعينهم . فالمستقبل كالماضى يمكن أن يكون منبع الاهتمام ومصدر العزاء ، والمستقبل هو الذى يعطى للحاضر معناه .

والبرجماتية ، والأداتية التجريبية بوجه خاص ، تبرز أهمية الفرد وتضعه فى الاعتبار الأول . فالفرد حامل الفكر المبدع ، وصانع العمل وصاحب تطبيقه . حقًّا نشأت الفردية فى أوربا ، ولكن الفلسفة الأمريكية جعلت للفرد وظيفة عملية أكثر منها إبستمولوجية . فالعقل الفردى مهم ، لأنه أداة التعديلات فى التقاليد والنظم ، والسبيل إلى الإبداع . وليس الفرد فى أمريكا هو « الفرد فى ذاته » المنعزل ، بل الذى ينشأ ، ويعيش فى بيئة إنسانية ، ويمكن تربيته .

هذه خلاصة أمينة لتاريخ البرجماتية الأمريكية كما عرضها ديوى نفسه ، كنا حريصين أن ننقل فيها معظم عبارات ديوى بنصها لأنها تعكس وجهة نظره ، وتمهد لمذهبه .

ولنعرض الآن رأيه فى برجماتية وليم جيمس ، فارس البرجماتية الثانى ، ولسانها الذى أذاعها فى أمريكا بأسلوبه الساحر ، وأحد المنابع التى استقى منها ديوى آراءه ، وصاحب الفضل فى التنبيه على نزعته الأداتية الجديدة .

نشر جيمس محاضراته فى كتاب سنة ١٩٠٧ بعنوان « البرجماتية » ، وبادر ديوى إلى عرض ذلك الكتاب ونقده فى مجلة الفلسفة فى فبراير سنة ١٩٠٨ فى مقالة بعنوان « ماذا تعنى البرجماتية بالعملى »[١] . ويهمنا أن نعرض وجهة نظر ديوى فى برجماتية جيمس ، لأنها تضع إصبعنا على نقطة البداية فى مذهبه . يقول ديوى ما فحواه :

البرجماتية عند جيمس مزاج عقلى ، اتجاه ؛ وهى كذلك نظرية فى طبيعة

---

(١) What does Pragmatism mean by Practical, Journal of Philosophy, Feb. 1908 V, pp. 85-99.

ثم طبعت فصلا فى كتبه « مقالات فى المنطق التجريبى ؛ » سنة ١٩١٦ ،

Essays in Experimental Logic, pp. 303-329.

الأفكار والحق ، وأخيراً فهى نظرية عن الحقيقة . أى أنها منهج ومذهب ، منهج فى الحياة والسلوك ، ومذهب فى الحق والحقيقة . ولكن البرجماتية منهجاً فهى ما يؤكده جيمس بدليل العنوان الفرعى الذى وضعه لكتابه « اسم جديد لبعض طرائق قديمة فى التفكير » ، وأكبر الظن أن هذا المعنى هو الغالب على ذهنه ، وأنه اتخذ مشكلتى الحق والحقيقة نموذجين لتوضيح المنهج . وأوجز صيغة وأشملها للتعبير عن هذا المنهج قوله إنه : « اتجاه يستدبر الأشياء والمبادئ والمقولات والضروريات المزعومة ويستقبل الأشياء والثمرات والنتائج والوقائع الأخيرة ».

وتُستعمل البرجماتية بوجه أعم للدلالة كذلك على نظرية معينة فى الحق truth . فهى « نظرية تكوينية لما نعنيه بالحق » . والحق يعنى فيما هو شائع اتفاق الفكرة والواقعة وتطابقها ، ولكن ما معنى اتفاق وتطابق ؟ إنهما فى المذهب العقلى يعنيان « علاقة ساكنة لا حركة فيها » ، وهى علاقة نهائية لا مجال فيها لمزيد من القول . وفى المذهب البرجماتى يعنيان القوة المرشدة أو القائدة للأفكار التى بها نغوص فى جزئيات الخبرة مرة أخرى ، حتى إذا استطعنا بمعونتها أن نعيد بين الأشياء المختبرة الترتيب والعلاقات التى تستهدفها الفكرة ، تحققت الفكرة ، وتطابقت مع الأشياء التى تعنى بمواجهتها . فالفكرة تكون صادقة إذا عملت على إرشادنا إلى ما تهدف إليه . أو : « أى فكرة تحملنا بنجاح من جزء من الخبرة إلى جزء آخر ، رابطة الأشياء ربطاً مرضياً ، عاملة فى ضمان ، مبسطة ، مقتصدة فى الشغل ، فهى صادقة بهذا المقدار ، وإلى هذا الحد » .

ويفترض هذا المفهوم أن الأفكار هى أساساً خطط ومناهج لإحداث تغييرات معينة فى الأشياء الموجودة من قبل. وهذه النظرة تعارض المذهب العقلى وما يقول به من « النظرية المشقية » copy theory ، من جهة أن الأفكار من حيث هى كذلك فهى عديمة الفعل وعاجزة ما دامت إنما تعنى أنها تعكس حقيقة كاملة بغير هذه الأفكار . بعبارة أخرى الأفكار نسخة طبق الأصل من حقيقة ثابتة ، كما تنعكس صورة شخص فى المرآة عنه .

وهنا نصل إلى الوجه الثالث للبرجماتية وهى نظريتها فى الحقيقة reality والتى يوضحها التقابل بين المذهب العقلى والبرجماتية . وهذا التقابل يتصل ببناء العالم نفسه ، وأن « التباين الأساسى بينهما هو أن البرجماتية لا تزال فى دور التكوين »[١] .

نقد ديوى للبرجماتية

يقوم نقد ديوى على أساسين ، الأول أن المنهج البرجماتى هو المنهج العلمى التجريبى ، والثانى أن نظرية الحق لم يتميز فيها فكرة المعنى والعمل ، ويتفرع عن ذلك رفض مذهب التعدد الذى كان يدافع عنه جيمس .

ولا خلاف أن البرجماتية هى قبل كل شىء منهج واتجاه ، ولكنها ليست بهذا العموم الذى ذهب إليه جيمس من أنها استدبار للمبادئ الأولى واستقبال للنتائج الأخيرة ، بل هى منهج محدد . إنها المنهج الذى ينظر إلى التصورات والنظريات والأفكار على أنها فروض توجهنا نحو إجراء تجارب معينة وملاحظات تجريبية . البرجماتية هى الاتجاه الذى عبر عنه بيرس فأحسن التعبير حين وصفها بأنها «عادة الذهن المكتسبة من المعمل» laboratory habit of mind والتى لا تقتصر على ميدان العلوم الطبيعية فقط بل تمتد إلى كافة العلوم الإنسانية كالتاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع . أما قول جيمس : بأن مركز الثقل فى الفلسفة ينبغى أن يتغير . . . « أن يتغير أساس السلطة » مما يذكرنا بالإصلاح الدينى عند البروتستانت ، فلا يضيف شيئاً جديداً . إنما الجديد ما يطالب به ديوى وهو تطبيق المنهج التجريبى على العلوم الإنسانية ، وأن تكون الخبرة الإنسانية هى « السلطة » الأخيرة التى يُعتمد عليها فى الفلسفة[٢] .

ويتضح عيب المنهج البرجماتى كما يتصوره جيمس حين تطبيقه ، وهو

---

(١) نقلنا هذا القدر من كلام ديوى الذى يلخص فيه مذهب جيمس قبل أن ينتقده ، ومعظم العبارات الموضوعة بين شولات من كلام جيمس نفسه . وسنختصر نقد ديوى بعد ذلك .

(٢) وانظر أيضاً فى النصوص مقالته بعنوان « عقيدتى الفلسفية » .

ويتضح عيب المنهج البرجماتى كما يتصوره جيمس عند تطبيقة ؛ وهو يعترف فى مقدمة كتابه أن الحركة البرجماتية عبر عنها كثيرون لهم وجهات نظر مختلفة بحيث نتج عن ذلك نتائج غير متسقة ، وأنه سعى إلى توحيد الصورة كما يراها فى نظره . وهذه الوجهات من النظر التى يتحدث عنها تصورت عدداً من الأمور المختلفة تصوراً برجماتيًّا ، ومن أجل ذلك اجتهد جيمس أن يبين معناها فى حلول عملية . وهنا تبرز الصلة بين المعنى meaning ، والعملى practical ، مما جعله ديوى عنواناً لنقده .

وقبل ذلك طبق بيرس المنهج سائراً فى الطريق الصحيح ، أى بتعريف « الأشياء »، وبيان صدق « الأفكار » ، ومعرفة ما يقبله الناس ويسلمون به من « معتقدات » .

الأشياء ، والأفكار ، والحقائق يختلف معناها بحسب هذا الاختلاف فى سلم الموجودات ، إذ « المعنى » ليس واحداً بالنسبة للأشياء ، وللأفكار ، وللحقائق فى ضوء ما يطالب به جيمس من النظر إلى الأشياء والثمرات والنتائج والوقائع الأخيرة .

ولننظر فى دلالة الشىء ، أى معناه الذى يتضمنه تصوره أو تعريفه . يقول جيمس : « كى نبلغ الوضوح الكامل فى أفكارنا عن شىء ، لا نحتاج إلا إلى أن ننظر فى الآثار العملية التى يبعثها الشىء » أو كما يذكر نقلا عن أوستفالد : « جميع الحقائق تؤثر فى حياتنا العملية ، وهذا الأثر هو معناها » . ومن الواضح أن الشىء فى هذه النظرية متميز عن معناه . « فالشىء » موجود وجوداً خارجيًّا ، و « المعنى » هو مفهومه الذهنى و « العملى » هو الاستجابات المستقبلة التى يتطلبها الشىء منا .

ولننظر فى « الفكرة » ، ما معناها . وطبقاً لبرجماتية جيمس علينا أن ننظر إلى النتائج المستقبلة . غير أن هذه النتائج تختلف إذا بدأنا من الشىء عنها إذا بدأنا من الفكرة ، لأن المنهج البرجماتى يريد منا « أن ننصب الفكرة للعمل فى تيار الخبرة ، وعندئذ لا يظهر أنها حل للمشكلة بمقدار ما يظهر أنها خطة لمزيد

من العمل ، وبوجه خاص كدلالة على الطرق التى يمكن بها أن تتغير الحقائق الراهنة . وهكذا تصبح النظريات أدوات (Instruments) . . . لا نستنيم إليها ، بل نتحرك إلى الأمام ، وفى بعض الأحيان ، نعدل بواسطتها الطبيعة » . بعبارة أخرى المعنى فى حالة الشىء هو التغييرات الذى يتطلبها المعنى فى موقفنا واتجاهنا ، والمعنى فى حالة الفكرة هو التغييرات التى تحدثها الفكرة بحسب موقفنا من الأشياء .

ولننظر فى الحقائق truths وما يقوله جيمس عنها : « ما الفرق الذى تحدثه عمليًّا لأى واحد منا أن يكون هذا المفهوم notion لا ذاك صادقاً ؟ فإذا لم يكن هناك أى فرق ، فأى واحد منهما يعنى عمليًّا الشىء نفسه ، وليس للنزاع داع » . ومن الواضح أن المعنى فى هذه الحالة يدل على القيمة ، على الأهمية . فالعامل العملى هو قيمة النتائج أهى حسنة أم قبيحة ، مرغوبة أم غير مرغوبة ، أو لا هذا ولا ذاك .

صفوة القول المعنى قد يكون تعريفاً « للشىء » ، وقد يكون دلالة وجودية على « الفكرة » ، وقد يكون قيمة واقعة أو أهمية .

والعملى قد يدل على مواقفنا وسلوكنا نحو الأشياء ، أو قدرة الفكرة على تغيير الوجود السابق ، أو الصفة المرغوبة أو غير المرغوبة لغايات معينة .

ولنطبق هذا التحديد على بعض المشكلات الفلسفية . مثال ذلك وظيفة الفلسفة فهى فى نظر جيمس معرفة الفرق بين الاعتقاد فى صيغة معينة عن العالم وبين صيغة أخرى وأثر ذلك فى حياة كل منا . فصيغة العالم مفروضة من قبل وليس علينا إلا الاعتقاد فيها . أما وجهة النظر عند ديوى فإن وظيفة الفلسفة ليست فى معرفة الفرق بين صيغة وأخرى عن العالم ، بل فى : « الوصول إلى معناها وتوضيحه ليكون خطة للسلوك نحو تغيير العالم الموجود » .

أو خذ مثالا ثانياً وهو وجود أو عدم وجود تدبير فى العالم . تقول الفلسفة المتوارثة « بوجود قوة بصيرة تُسيِّر الأشياء » . وطبقاً لبرجماتية جيمس إذا كانت القوة المسيرة للأشياء بصيرة لا عمياء فلنا أن نتوقع نتائج أفضل . « وهذه الثقة

الغامضة فى المستقبل هى المعنى البرجماتى الوحيد الذى يمكن تمييزه لاصطلاحات التدبير المدبر » وهذا المعنى الأخير إما أنه يضعه بدلا من المعنى الأول وهو القوة البصيرة المسيرة للأشياء ، وإما أنه يضيف قيمة وصحة برجماتية لفكرة القوة البصيرة ، وإما أن الاعتقاد فى القوة البصيرة له قيمته بصرف النظر عن وجود هذه القوة . والتفسير الأول هو أليق التفاسير بالبرجماتية فيما يرى ديوى ، أى تحديد المعانى وتمييزها . ولكن جيمس لا يفعل ذلك ، بل يأخذ المعانى الموجودة من قبل ويرتب عليها السلوك ، وفى ذلك يقول : « إن الفكرة عن الله تضمن نظاماً مثالياً يظل محفوظاً أبد الدهر » .

ولندخل إلى مشكلة الحق التى يحلها جيمس بقوله إن الأفكار تكون حقاً بمقدار ما يعيننا على الظفر بعلاقات مرضية مع أجزاء أخرى من خبرتنا ، وأن الفكرة تكون حقاً حين تحملنا « بنجاح » من جزء من الخبرة إلى جزء آخر ، رابطة الأشياء ربطاً مرضياً ... أى أن النجاح والإرضاء هو محك الحق. ولكن هل هذا النجاح قائم فى الترابط بين الأشياء ؟ أو قائم فى النتائج المادية ؟ فهذه مسألة لم يوضحها جيمس .

جملة القول يرجع الغموض فى مذهب جيمس إلى طريقة تحديد معنى « العملى » أهو الوقائع المرغوبة التى تحدد قيمة الاعتقاد ، أم هو الاتجاه المفروض على الأشياء ، أم هو قوة الأفكار ووظيفتها فى تعديل الوجود السابق .

ومن هنا يبدأ عمل ديوى البرجماتى فى تحديد المعانى ، أى الاتجاه بالبرجماتية وجهة منطقية وإبستمولوجية ، ولذلك كانت الأداتية عنده جزءاً من صميم المنطق ونظرية المعرفة . ومن هذا الوجه فى المنهج يفترق ديوى عن جيمس .

ويفترقان تبعاً لذلك من وجه ميتافيزيقى ، وهو فرق أساسى يباعد بينهما غاية البعد ، لأن جيمس من أنصار مذهب التعدد والكثرة ، أما ديوى فهو من غلاة الواحدية ، وظل يردد فى شتى كتبه الطعن على الثنائيات المشهورة فى تاريخ الفلسفة ، مثل ثنائية العقل والجسم ، المادة والروح ، المثال والواقع ، وما إلى ذلك .

ولنبحث الآن فى شىء من التفصيل المنهج الذى اشتهر به وهو الأداتية .